

علماء صنعوا الثروات بالتجارة □□ كيف جمع أئمة الإسلام بين العلم الشرعي والاستثمار واستقلال القرار؟



الاثنين 29 يونيو 2026 06:30 م

قدمت الحضارة الإسلامية عبر تاريخها نماذج فريدة لعلماء جمعوا بين التفوق العلمي والنجاح الاقتصادي، فكانت التجارة بالنسبة إليهم وسيلة لحماية استقلالهم الفكري وتأمين مواردهم بعيداً عن نفوذ الحكام وأصحاب الأموال □□ وبينما اشتهر كثير منهم بالفقه والحديث والتفسير، فإنهم كانوا أيضاً من كبار التجار الذين تنقلت قوافلهم بين المشرق والمغرب، وتراكت ثروتهم حتى بلغت ملايين الدولارات بحسابات العصر الحديث، دون أن يمنعهم ذلك من الإنفاق على طلاب العلم ورعاية العلماء والمحتاجين □□

ولم يكن علماء المسلمين في العصور الإسلامية الأولى يعيشون على عطايا الحكام أو ينتظرون رواتب من الدولة، بل اعتمد كثير منهم على التجارة والصناعة والحرف المختلفة، حتى أصبح بعضهم من كبار أثرياء زمانهم، دون أن يؤثر ذلك على مكانتهم العلمية أو زهدهم أو استقلالهم في الفتوى والرأي □□

وتكشف كتب التراجم الإسلامية أن العلاقة بين العلم والتجارة لم تكن استثناءً، وإنما كانت ظاهرة واسعة امتدت لقرون، إذ مارس آلاف العلماء مختلف الأنشطة التجارية، من بيع الأقمشة والعمود والذهب والكتب والجلود، إلى التجارة الدولية التي امتدت من الأندلس غرباً حتى الصين شرقاً □□

آلاف العلماء مارسوا التجارة

وتوضح المصادر التاريخية أن نسبة كبيرة من علماء المسلمين كانت تمارس أعمالاً تجارية أو حرفية بجانب التدريس والتأليف والفتوى □□

ويذكر الإمام أبو سعد السمعاني في كتابه "الأنساب" أن أحد علماء القرن الثالث الهجري ألف كتاباً بعنوان "كتاب الصانع من الفقهاء والمحدثين"، جمع فيه عشرات العلماء الذين كانوا يعملون في تجارة العطور وحدها □□

كما توصلت دراسات حديثة إلى أن نحو 4200 ترجمة من أصل 14 ألف ترجمة لعلماء المسلمين تضمنت معلومات عن مهنتهم، وهو ما يعكس ارتباط الحياة العلمية بالعمل والإنتاج الاقتصادي □□

وأظهرت الإحصاءات أن:

22% من العلماء عملوا في تجارة وصناعة النسيج □□

13% في الصناعات الغذائية □□

4% في تجارة المجوهرات □□

4% في تجارة العطور □□

4% في تجارة الجلود □□

4% في تجارة الكتب □□

3% في المعادن □□

بينما توزع الباقون على عشرات الحرف والصناعات الأخرى □□

التجارة □□ طريق الاستقلال العلمي

لم يكن هدف العلماء من التجارة جمع الثروات فحسب، بل كانت وسيلة للحفاظ على استقلالهم عن السلطة السياسية

فقد أدرك علماء المسلمين أن من يملك قوته يملك قراره، ولذلك فضل كثير منهم العمل في التجارة على قبول عطايا الخلفاء والأمراء

ويعبر الإمام ابن الجوزي عن هذه الفكرة بقوله إن جمع المال من أنفع الأمور للعالم، لأنه يغنيه عن سؤال الناس ويحفظ هيبة العلم، مؤكداً أن الفقر كان سبباً في وقوع بعض العلماء تحت تأثير أصحاب السلطة والمال

كما شدد على أن طالب العلم ينبغي أن يسعى إلى الكسب حتى لا يضطر إلى التنازل عن استقلاله أو مكانته بسبب الحاجة

النبي والصحابة البداية من الأسواق

وترجع جذور هذه الثقافة إلى بدايات الإسلام، فقد عمل النبي محمد في التجارة قبل البعثة، حيث كان يتاجر بأموال السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، كما شارك في التجارة مع عدد من رجال قريش

وسار الصحابة على النهج نفسه، فكان أبو بكر الصديق تاجراً قبل الخلافة، وظل يعمل في السوق حتى تولى إدارة الدولة، قبل أن يتفرغ لشؤون المسلمين

أما عثمان بن عفان فكان من أكبر تجار مكة، وأنفق من أمواله الخاصة آلاف الدنانير في تجهيز جيش العسرة، بينما صنع عبد الرحمن بن عوف واحدة من أكبر الثروات التجارية في تاريخ الإسلام، حتى أصبح مثلاً للغني المنفق

كما امتلك الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ثروات ضخمة تراكمت من التجارة والاستثمار، وخلفاً أموالاً وعقارات قدرت بملايين الدراهم

الليث بن سعد إمام مصر وصاحب الملايين

يعد الإمام الليث بن سعد أحد أبرز النماذج التي جمعت بين القيادة العلمية والنجاح الاقتصادي، فقد كان المرجع الأول لأهل مصر في عصره، وفي الوقت نفسه كان يستثمر ما يعادل عشرين ألف دينار سنوياً، وهو ما يوازي ملايين الدولارات بقيمة العصر الحالي

ولم يحتفظ الليث بثروته لنفسه، بل عرف بكرمه الواسع، فكان يرسل مئات الدنانير للإمام مالك بن أنس كل عام، كما دعم عشرات العلماء وطلاب العلم، وأنفق بسخاء على المحتاجين

عبد الله بن المبارك تاجر ينفق أرباحه على العلماء

أما الإمام عبد الله بن المبارك، أحد كبار أئمة الحديث، فقد كان تاجراً في الأقمشة، وكان يجوب البلدان بين خراسان والعراق والشام للحج وطلب العلم والتجارة في آن واحد

وكان يقول إنه لا يمارس التجارة إلا ليمكن من الإنفاق على خمسة من كبار العلماء، فكان يأخذ ما يكفي أسرته ونفقات الحج، ثم يخصص بقية الأرباح لدعم العلماء وطلاب الحديث

وأصبح ابن المبارك نموذجاً للعالم الذي جعل التجارة وسيلة لخدمة العلم، لا غاية لجمع الثروة

محدث ترك ثروة تعادل 60 مليون دولار

ومن أكثر القصص إثارة في تاريخ العلماء التجار ما يروى عن الإمام دعلج بن أحمد السجستاني، أحد كبار المحدثين في القرن الرابع الهجري، فقد وصفه المؤرخون بأنه كان أغنى تجار عصره تقريباً، حتى قيل إنه لم يكن في الدنيا أيسر منه من التجار

وعندما توفي ترك ثلاثمائة ألف دينار، وهي ثروة تعادل نحو 60 مليون دولار وفق تقديرات الباحثين المعاصرين

ورغم هذه الثروة الهائلة، خصص أوقافاً وصدقات جارية لدعم أهل الحديث في بغداد ومكة وسجستان، وأنفق مبالغ ضخمة على العلماء والفقراء

علماء جابوا العالم بقوافل التجارة

لم تقتصر التجارة على الأسواق المحلية، بل كانت سبباً في انتقال العلماء بين مختلف أقاليم العالم الإسلامي

فقد سافر بعضهم من الأندلس حتى الصين، بينما جاب آخرون الهند وخراسان وبلاد ما وراء النهر وفارس ومصر والشام والعراق، يجمعون بين البيع والشراء وطلب العلم وسماع الحديث

وكانت هذه الرحلات سبباً رئيسياً في انتقال الكتب والمخطوطات والروايات العلمية بين الأقاليم، وأسهمت في توحيد الحركة العلمية داخل العالم الإسلامي

تجارة الكتب والعطور والذهب

تنوعت الأنشطة الاقتصادية للعلماء بشكل لافت، فمنهم:

- تجار الذهب والمجوهرات
- باعة العطور
- تجار الأقمشة والحبر
- تجار الكتب والوراقون
- باعة الزيوت
- أصحاب تجارة الجلود
- الصيارفة
- السماسرة
- تجار القطن
- تجار البهارات القادمة من الهند

حتى إن بعض العلماء عُرفوا بأسماء مشتقة من تجارتهم، مثل البزاز، والعطار، والجوهري، والكتبي، والزيات

خسائر وتجارب قاسية

ورغم النجاح الكبير، لم تكن التجارة تخلو من المخاطر، فقد خسر بعض العلماء ثروات ضخمة بسبب غرق السفن أو تعثر القوافل أو تقلبات الأسواق، حتى انتهى الحال ببعضهم إلى الفقر بعد سنوات من الثراء

لكن هذه الخسائر لم تمنعهم من مواصلة التدريس والإفتاء وخدمة العلم، بل ظلت مكانتهم العلمية محفوظة رغم تغير أوضاعهم المالية

رعاية العلماء بالأموال والأوقاف

كما برزت فئة من كبار التجار الذين جعلوا جزءًا من ثرواتهم لخدمة العلماء وطلاب العلم، فأنشأ بعضهم الأوقاف، وبنى المساجد والمدارس، وتكفل بنفقات العلماء والطلاب، وساعد في نشر الكتب والمخطوطات، دون التدخل في آرائهم أو التأثير على استقلالهم

وقد أسهم هذا النموذج في ازدهار الحركة العلمية لقرون طويلة، حيث وجد العلماء مصادر تمويل مستقلة بعيدًا عن السلطة السياسية

نموذج حضاري فريد

تكشف هذه النماذج التاريخية أن الحضارة الإسلامية لم ترَ تعارضًا بين النجاح الاقتصادي والتفوق العلمي، بل اعتبرت العمل والإنتاج جزءًا من رسالة العالم

فكانت التجارة بالنسبة لكثير من العلماء وسيلة لحماية استقلالهم الفكري، وتأمين نفقات الرحلات العلمية، وتمويل التأليف، ورعاية الطلاب، وخدمة المجتمع، حتى أصبح بعضهم من كبار أثرياء عصره دون أن يفقد مكانته العلمية أو رسالته الدعوية

وتبقى تجربة العلماء التجار واحدة من أبرز الشواهد على أن العلم والعمل كانا ركيزتين متكاملتين في بناء الحضارة الإسلامية، وأن الاستقلال المالي كان أحد أهم عوامل ازدهار الفكر والبحث العلمي عبر القرون